أبدع طرق الشام

وأروعها : بين انطاكية واللاذقية

لوصفي زكريا

طوّحت بي السفرة ثانية في أواخر ربيع العام الماضي الى انطاكية عاصمة شمالي الشام وعروس مدنها في العصور الاولى المتوسطة . وقد كنت وصفت بالتفصيل في كتابي «جولة اثرية في بعض البلاد الشامية» [1] تاريخ هذه المدينة الحبيبة في تلك العصور وما بعدها ، واطريت مجدها الغابر وحالها الحاضر ، وتغنيت بغضرة سهولها وخضرة حزونها وغناء رياضها ووفرة مياه عاصيها وكثرة اثمارها ... الخ ، لهذا لم اجد فيها هذه المرة ما يستحق الاضافة سوى ذكر بعض قطع الفسيفساء المصورة التي عثرت عليها اخيراً بعثة أثرية موفدة من جامعة برنستون الاميركية في باتين قرية الحرية . وفي هذه القطع طرف نادرة من التصوير الملون بالاصباغ الزاهية ، وجلها يمثل وقائع الاساطير اليونانية كالنساء المحاربات « الآمازون » وآلهة البحر والحرّ والحب وغيرها . وتكاد الصور تتحرك وتنطق امام انظار المتفرج المشدوه بحسنها ودقة صنعها . وسيكون مستقر هذه القطع الفريدة المثال في متحف انطاكية الذي لا يزال العمل في بنائه قائماً

وحدثتني نفسي الولوعة بالاسفار ومشاهدة المناظر والآثار ان ابدل الطريق التي جئت فيها من دمشق ماراً بحمص وحماة وحلب بالطريق الحديثة الذاهبة من انطاكية الى اللاذقية — وطولها ١١٥ كيلو متراً — ، وقد كنت سمعت انها ابدع طرق الشام واروعها لكثرة مشاهدها الطبيعية ومشارفها المرتفعة وحراجها الملتفة وتموجها المتباينة ، فسلكتها للمرة الاولى وسرحت بصري برؤية مباهجها واستقصاء كواتنها الطبيعية وشؤونها الاجتماعية والعمرانية والاثرية ، فحققت الخبر بالخبر ، وها انا ذا واصف ما رأيت وما استقصيت على النحو الذي درجت عليه في وصف امثال هذه الطريق في كتابي المذكور آنفاً

---

(١) في هذا الكتاب وصف طبوغرافي تاريخي اثري عمراني للبقاع والبلدان الممتدة من شمالي الاسكندرونة الى ابواب دمشق ، وهو يحتوي على ٢١٠ صفحة و ٢٥ رسماً

لم تكن طريق المطاكية — اللاذقية في السنين الخوالي ، مسلوكة الا ممن كان قادراً على اقتحام عادية قطاعها او جفوة سكانها او وعورة حراجها ومنعرجاتها . ومن الغريب ان احداً من اسلافنا مؤرخي العرب القدماء وجغرافيهم لم يذكر هذا الطريق ، حتى ولا ياقوت ولا القلقشندي ولا ابو الفداء ولا شيخ الربوة المعدودون اكثر من كتب في جغرافية بلاد الشام في العصور المتوسطة . وقد كدت احكم بان احداً من اولئك الاسلاف لم يمر بهذه الطريق او لم يسمع باسم الجبال والبلاد والشعوب التي فيها ، لولا ان ادركني الادريسي في آخر البحث . فقد وجدته في كتابه «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» يذكر في جملة البلدان الممتدة في ساحل الشام الشمالي اسم حصن المرباط وانه يبعد عن اللاذقية ١٨ ميلاً وعن السويدية ١٥ ميلاً ، فاضطررت الى ان اعدل عن حكمي ، ولاسيما بعد ان رأيت العالم التركي كاتب چلبي ينقل عبارة الادريسي هذه في جغرافيته المسماة « جهان نما » المطبوعة في الاستانة سنة ١١٤٥ هـ ، والمستشرق الفرنسي دوسو ايضاً في كتابه المسمى « الطبغرافية التاريخية لبلاد الشام» [1] ويحكم هذا المستشرق بالاستناد على الابعاد الواردة في عبارة الادريسي بان حصن المرباط ينبغي ان يكون في موضع قرية الاردو الكائنة في سفح الجبل الاقرع ، وسنأتي على ذكرها

وانتهى حكمي بعد الى التأكد من ان اولئك الاسلاف لم يفتهم التجوال او البحث في اي بقعة من بقاع الشام ناهيك غيره من اقطار المعمور التي كانت معروفة في عهدهم وانه اذا لم نعثر على بعض ما نرومه في كتبهم التي وصلت الينا لا يبعد ان يكون بين ملايين الكتب التي خلفوها وضاعت قبل ان نراها ما قد يحتوي على منالنا . فقد كانوا رحمهم الله مشغوفين بالسياحة والسفر ، ولوعين بتدوين كل مشاهدة وخبر على نقيض اخلافهم ابناء الجيل الحاضر . فقد اخنى على معظمنا الكسل وحب السكوت والانقباع ، فقل فينا من يسوح او يسافر على الرغم من كثرة الوسائل وسهولتها في عهدنا ومن نشط وسافر منا قلما يحفل بالبحث والكتابة عن الاماكن التي يزورها كما كان يعمل اولئك الاسلاف من قبل ، وكما يعمل الآن الغربيون الذين يدونون كثيراً بتدوين ما يرونه ويسمعونه لاسيما اذا كان فيه ابحاث قيمة واخبار طريفة

وقد وجدت ناشري كتاب « دليل الشرق » الفرنسي المطبوع سنة ١٨٨٢ [2] عند ذكرهما هذا الطريق واطرائهما روعتها وعظمة مشاهدها يقولان انها غير مأمونة ويوصيان السياح الافرنج اذا عوّلوا على اجتيازها ان يعدوا لها ما يكفي من السلاح والرجال . وكان السياح يقضون فيها على الرواحل ٢٢ — ٢٦ ساعة . قيل ان فريقاً من جيش ابراهيم باشا المصري اجتازها كما

(١) Topographie historique de Syrie antique et médieal par Dussaud

(٢) Itinéraire de l'Orient, par Chauvet et Isambert, Paris, 1882

كانت تجتازها من قبل جيوش الصليبيين في غدوها ورواحها من اللاذقية إلى انطاكية ولعلها كانت في تلك الازمان احسن حالاً مما بلغته قبل تعبيدها الاخير . ولم تعبَّد هذه الطريق وتجعل صالحة لسير السيارات الاّ منذ سنوات اربع بعد ان كسرت صخورها ووسعت منافذها وذللت صعابها وبدل خوفها بالامن وقد انتهت الان اعمال التعبيد على احسن حال في قسمها العائد الى حكومة انطاكية بينما هي لا تزال قائمة في قسمها العائد الى حكومة اللاذقية يشتغل فيه مئات من الجنود الشاميين المستخدمين في جيش الاحتلال الفرنسي ، ذلك لان قيادة هذا الجيش تعنى بفتح هذه الطريق وأمثالها لمكانتها الحربية

وصف الطريق — يخرج السائح من غربي انطاكية ويجتاز بقعة بهجة خضراء على يمينها وادي العاصي وعلى يسارها اعضاد جبل القصير المشرفة على انطاكية . وكلما سار ينحرف نحو الجنوب ويرتفع بالتدريج نحو تلك الاعضاد ويجتاز عدة جسور شيدت فوق اودية صغيرة تهبط نحو العاصي . وفي الكيلومتر السادس يفتح على يسار الطريق اطلال قناة الامبراطور طريانوس التي كانت تأخذ الماء من دفنة الى انطاكية . ثم يدخل بين كروم التوت والبساتين الملتفة الاشجار المختلفة الثمار التي تحمل في كل صباح الى انطاكية وحلب وأخصها الاكيديا[1] والبرتقال وقد انتشرت بينها دور واكواخ كثيرة . وهنا يلمح السائح على يمينه كسور اعمدة اثرية وبقايا من الرصيف القديم الممتد من دفنة الى انطاكية وهكذا الى ان يصل في الكيلو متر ٩٢٥ الى متنزه الحرية — واسمه القديم دفنة — وهو لا يزال كما كان قبلاً لاهل انطاكية منبع ماء الشرب ومتنزه روّاد القصف والنزهة ، ويزيد عما قبل أنه الآن مصدر نور الكهرباء ايضاً

والحرية في يومنا قرية اهلها عرب نصيرية دورها منتشرة بين الكروم والبساتين التي رصفناها ومكان النزهة المنشود يدعى « بيت الماء » يعلو عن سطح البحر ٣١٥ متراً ويقع غربي الطريق في اعلى وادٍ سحيق يهبط اليه في شعب ذي التواء خلال دقيقتين او ثلاث وهو مؤلف من مدارج عريضة تتوالى من رأس المنحدر ، فيه ظل ظليل وجوّ بليل وماء رائق عذب نمير . والماء ينابيع عديدة تتفجر من شقوق الصخور الصمّ تتساقط من فوق الى تحت بين الحشائش المائية والاعشاب المتعرشة واشجار الدلب الوارفة فتحدث عدة شلالات خرارة ذات ارغاء وازباد رائعين ، يدير اكبرها ارحاء طاحونتين او ثلاث مبني بعضها فوق بعض في اسفل المتنزه . وعند اليفوع الاعلى خزان يدفع الى انطاكية بماء الشرب ونور الكهرباء ، وقد بني بالاسمنت منذ بضع سنوات . وثمة كلام محيط بالوادي السحيق المذكور الذي لا يرى قعره وهو يمتد نحو الغرب ويأخذ مياه تلك الشلالات الغزيرة الى نهر العاصي

(١) هو زعرور ايليان Nefflier du Zapon المعروف في الشام بالاكيديا او المشمش الهندي وفي مصر بالبشملة

هذا والشلالات وسقطاتها والرغوات المتجمعة والفطرات المتناثرة فوقها مناظر خلابة وللصخرة والزجرة الداويتين منها اصداء مطربة تأخذ بمجامع القلوب وقد أحدثوا هنا مقهى وضع اصحابه كراسي وموائد بين الينابيع وتحت الاشجار والمظلات التفت حولها عشاق الصهباء وراغبو التملي بمحاسن الطبيعة من نساء ورجال بلاد الشام الشمالية وغيرها اخص بالذكر الحلبيين المحرومين من الظل الوارف والماء الدافق . وقد اتخذ كل جمع منهم ناحية وبسط موائد الطعام او الشراب او احتضن آلات العزف والطرب او اشرع نارجيلته في الماء ينفخ ويبث دخانها الى الهواء او اضطجع واستغرق بمتع نفسه بهجة هذا المكان ونداوته ، يكاد لا يرى فيها بعضهم بعضاً ولا يسمعه منها بدل الوتيرة ورفع الصفيرة لاختلاف اماكن الجلوس في ارتفاعها وانخفاضها ولشدة ارغاء الشلالات وازبادها

وقد حملت هذه المشاهد الخلابة والمياه الحرارة القليلة المثال فيما مضى اليونانيين والرومانيين في عهد ازدهار انطاكية على تجميل « دفنه » وما حولها بالمياكل والملاعب والقصور والفنادق والحمامات ودور الملذات حتى غدت ابرج وأفتن مكان في العالم القديم كله للمرح والحبور وارتشاف كؤوس النبور . فما من معبود وثني كأريس وفنوس وديانا وجوبيتر الا واقيمت له فيها الهياكل وما من قيصر او عظيم يوناني او روماني الا وشاد لاسمه فيها بناء من تلك المباني واقام عند قدومه اليها اعظم الاستقبالات وعند مكوثه اعظم الاعياد واجمل الحفلات . حتى ان اغذوكيا زوجة تيودوسيوس الثاني وكليوبطرة ملكة مصر عشيقة انطونيو وجوليا ابنة اوغسطوس وغيرهن من القيصرات والاميرات جئن وقضين فيها ايماً في رغد العيش وهناء الطيش

اما الآن وبعد ان اختت عوادي الزمان على انطاكية وضواحيها ومنها مصانع دفنه ومقاصفها فلم يبق من عظمة هذا المكان السالفة سوى روائعه الطبيعية «ماء وظل وأزهار واشجار» وسوى بضعة كسور أعمدة وبقايا اسس جدران مبعثرة بين الحدائق التي عثر في ارضها على قطع الفسيفساء المذكورة آنفاً ، وناهيك بكمال هذه القطع وجمال صنعها اللذين اشرت اليهما في فاتحة مقالي دليلاً على شأن دفنة ورقيها الزائدين . ولولا انتشار السيارات في السنين الاخيرة وتسهيلها السفر والاتصال لظلت دفنة مهجورة منسية لا يعلم بأمرها الا بعض الانطاكيين وقليل من سياح الافرنج الذين قرأوا عنها وجاؤا يتلمسوا مجدها الداثر وجدها العاثر

وقد شيد احد اثرياء قرية الحرية منذ عهد قريب فوق شلالات الماء وفي بقعة مشرفة على اروع المناظر فندقاً عصريًّا مستوفياً شروط الراحة لمن يشاء ان يقضي زمناً في هذا المكان البرج السهل المنال

وجعلت الحرية قاعدة ناحية تتبعها تسع عشرة قرية جميع سكانها عرب نصيرية منها الجرداقية

والدرسونية والدرعوزية والدرويشية والدوبر ودير الماشطة وعين الجاموس وعين السلك وغيرها وهؤلاء النصيرية يؤلفون اكثرية السكان في وادي العاصي الممتدة بين انطاكية والسويدية على البحر المتوسط ، وتمتاز ضياعهم بوجود القباب البيض التي تعلو الاماكن المرتفعة وتحت كل قبة منها لاحد مشائخهم او اعزتهم محجون اليه في اوقات معينة . ولنصيرية هذه الانحاء على ما يظن نزحوا في احقاب متوالية من مواطنهم الاصلية في جبال اللاذقية فاختلط هنا بعضهم ولم يعد لهم عصبيات خاصة وانتهاء الى قبائل معروفة كما هي الحال في مواطنهم المذكورة . ومهنة هؤلاء الفلاحة والبستنة وتربية الماشية ودود الحرير الذي دالت دولته ، وقل من امتلك منهم ارضاً واسعة بل جلهم اجراء وشركاء لدى « الآغوات » و « البكوات » الترك الانطاكيين

والنصيرية ذوو عقائد وعادات وازياء خاصة يضيق نطاق بحثنا عن الخوض فيها . يقطنون في انحاء كيليكية « من بلاد الترك » والاسكندرونة وانطاكية وفي جبال اللاذقية واوعار حماة وحمص وسهولها الشرقية وفي بعض قرى الجولان جنوبي دمشق . وقد عطفت عليهم الدولة الفرنسية بعد دخولها وأسمتهم « علويين » وجعلت لبعض نبهائهم مناصب ووظائف في حكومتي الاسكندرونة واللاذقية وملحقاتهما ، وجندت كثيراً من شبانهم في جيشها الشرقي المرابط في بلاد الشام . لكن سوادهم الاعظم ما برح على غاية من الجهل المطبق والفقر المدقع والانقياد الاعمى لكبرائهم ذوي الزعامة الزمنية ومشائخهم ذوي السيادة الروحية الذين دأبهم استثمار غفلة اتباعهم بضروب الخدمات والاتاوات ما منهم من يعرف حسن القيادة والارشاد والهداية او يفكر بذلك

***

وحمل الى الطريق ! تصعد السيارة بعد قرية الحرية نحو مرتفعات جبل القصير ، تاركة على يسارها وادي دفنة ، ولا تزال تلهث وتصعد عقبات حتى تبلغ ناحية جبلية تدعى « ناحية القصير الفوقاني » تميزاً لها عن ناحيتين في شرقيها اسماهما القصير الوسطاني والقصير التحتاني . والاولى التي تجتازها تختلف عن جارتيها بأنها تركمانية وتبلغ عريتان ، وبانها اكثر منها علواً واشق وابرد هواء ، صخورها كلسية بيض او دكن يتخللها في بعض الاماكن احجار من النوع المعروف بسباط استدة [1] ومقذوفات بركانية . وهي في جملتها ذات نجود خالية من الحراج ، قليلة الخصب ، قليلة القرى ، يكثر فيها نبات البلان وحيوان الصيد ولا سيما الارنب والحجل ، وغالب سكانها تركمان سنية لا يزالون على الفطرة ، جاهم لا يعرف العربية التي لا تعود تسمعها بعد مغادرة الحرية حتى تصل الى سواحل اللاذقية

(١) Spath d'Islande ضرب من الاحجار الكلسية المتبلورة

وفي هذه الناحية الجبلية في الكيلو متر ١٣ شعب [١] في الجبل يتجه نحو الشرق الى حصن القصير احد معاقل انطاكية في عهد الصليبيين . وفي الكيلو متر ١٩ شرقي الطريق ايضاً قرية اسمها طرفندو اهلها نصيرية فيها شيخ يحترف شفاء المرضى وازالة عقر النساء والتأليف بين المحبين وثمة قرية اخرى اسمها جندالية اهلها اسماعيلية المذهب من عبّاد آغا خان الزعيم الهندي المعروف في الخم الاندية ويادين سباق الخيل في فرنسا وانكلترة يبذخه وترفه ، وهم يعيشون عيشة اشتراكية تحت قيادة شيخ لهم . وفي الكيلومتر ٢٣ على يمد كيلومترين عن يسار الطريق وتحته قرية كبيرة اسمها شيخ كوى « قرية الشيخ » تعد من امهات قرى جبل القصير ، واقعة في منخفض واسع احاطت به صخور حمرٌ او دكنٌ ، اهلها تركمان سنية ، عددهم نحو ١٥٠٠ ، اكتظت بيوتها حول مسجد له مأذنة وبعضها مسقوف بالآجر الاحمر ، وينسب اسم هذه القرية الى الشيخ احمد القصيري الخلوتي الكردي الاصل الذي يعدونه من الاولياء ويزعمون انه لما جاء من بلاد العراق الى هذه الانحاء في القرن العاشر الهجري او قبله جاء محمولاً على بساط الريح ، وضريح هذا الشيخ مقصود بالزيارة ولأعقابه في هذه الديار ثروة ووجاهة طائلتان احتجنوها بالمشيخة . وقد جعلت قرية الشيخ قاعدة ناحية قصير الفوقاني التي من قراها او قجبلر وصوفيلر وشمرجق وغيرها

***

وبعد مسير قليل في نجود جرد تتدرج بالارتفاع تصل السيارة في الكيلو متر ٢٦٫٥ الى علو ١٠٠٠ متر وهو المنتهى في جبل القصير . فيشاهد السائح هنا منظراً رائعاً يشرف في الشمال على سهل العمق وبحيرة انطاكية والجبل الاحمر وجبل الكرد ، وفي الشرق على الجبل الاعلى وما في جبل القصير نفسه من الاودية والهضاب المتموجة [٢] الدكن.

ثم تبدأ الطريق بالانحدار، فتجتاز في الكيلومتر ٣٤ هضبة مستطيلة ذات تربة حمراء، جوها بارد قارس حتى في الصيف ، فيها رامة [٣] صغيرة تجف في الصيف تدعى الرامة الحمراء . وفي الكيلومتر ٣٨ على يسار الطريق وعلى بعد خمسين متراً كهوف ومدافن اثرية . وفي الكيلومتر ٤١ تنتهي نجود القصير فتشرع الطريق بالمرور بين منحدري جبل القصير والجبل الاقرع وتبدأ اشجار الصنوبر ذات المنظر النضر والاريج العطر بالظهور رويداً رويداً « لها تتمة »

(١) الشعب بكسر الشين وسكون العين الطريق في الجبل

(٢) عنيت بالمتموجة تلك التي يتوالى فيها الارتفاع والانخفاض كامواج البحر ، وذلك مقابل كلمة Ondulé الفرنسية (٣) الرامة مستنقع يجتمع فيه الماء ثم يجف